"نشرة" الإنسان والتطور
2009-5-15
السنة الثانية
العدد: 623
حوار/بريد الجمعة

مقدمة:

مازالت أغلب التعقيبات تتجنب التعليق على الحالة: "فصامى يعلمنا" (إلا قليلا قليلا)، ويبدو أن هذا العزوف عن التعقيب لن يثنينى عن مواصلة نشر "حالات يومى الثلاثاء والأربعاء" فقد تكون -فى نهاية النهاية- أهم ما أنا منوط بتبليغه، ليس فقط للمرضى والأطباء والمعالجين، وإنما لكل الناس.

تعلمنا من خمس حالات من التحليل النفسى لفرويد ما تعلمناه وكانت الإمكانيات التسجيلية والتحريرية أيامه أقل عشرات المرات من الآن، قد يكون فى هذا القرار الخاص بى هكذا نوع من التمادى فى فرض الرأى، وقد ينصلح الحال لاحقا وتظهر فائدة هذا الإصرار حين ننشر حالة (أو أكثر) فى كتاب ورقى.

ولكن هذا هو موقفى الآن، جدا.

وقد أتراجع من فرط الإحباط.

أما بقية التعقيبات فقد نال باب "التدريب عن بعد" أغلب الاهتمام كالعادة ويبدو أنه أسرع وصولا واقرب فائدة.

أما مفهوم الوطن وحكاية ومعنى وخطأ حسن نصر الله"، فمازالت التعقيبات تترى، ومازال تأجيل الرد على التعقيب المعترض الأساسى (محمد يحيى الرخاوى)، قائم، أملاً فى ردّ تفصيلى مناسب.

* * * *

التدريب عن بعد: الإشراف على العلاج النفسى (47)

حق المريض فى العلاج، واستعجال الطبيب، وضجره

أ. إسراء فاروق

زى ما حضرتك قلت إن الإستشارة دى بدرى شويتين "5 جلسات" فقط لكن لو كان نقص المعلومات ده مستمر أو ظهر بعد فترة طويلة من الجلسات هل من الممكن إن المعالج فى الحاله دى ممكن يستكمل العلاج فى ظل هذا النقص من المعلومات؟

د. يحيى:

بصراحة، نعم ممكن

العلاج هو العلاج، وعلينا أن نقدمه ونمارسه تحت كل الظروف طالما هو يحقق أهدافه المتوسطة، فالبعيدة حسب الاتفاق العلاجى، وحسب صالح المريض.

د. نعمات على

مع مرور الوقت والخبرة ونمو المعالج يعرف المعالج كيف يتحمل مسئولية قراراته والجرعة المناسبة لدفع المريض لأخذ موقف أو اتجاه معين....، ولكن ماذا يفعل قبل ذلك؟.

د. يحيى:

يتدرب، ويتعلم، وينمو، ويُثَابْ

أ. رباب حمودة

يعنى هوه لازم استريح لكل عيان أو احبه؟ ولو مش كده هوّا مش ده حايوصل للعيان برضه؟ طيب وأنا حايكون موقفى إيه؟

وهل هذا يفيد فى العلاج أم لا؟

د. يحيى:

المسئولية العلاجية هى الحب المطلوب، وهى تتحقق من واقع الموقف الأمين بما فى ذلك أن نمارس العلاج "بما هو نحن"، والاعتراف - دون إعلان مباشر- بالنفور من المريض أو عدم حبه، هو تحريكٌ لمستوى آخر من العلاقة غالبا هو مستوى أصدق وأكثر فائدة.

فهو حب أيضا وأصلا.

أ. رباب حمودة

فيه وقت احس انى مش فاهمه العيان أو أن كل اللى بيقوله كذب، واحس إنى كده مش باساعد فى اى حاجة وتختلف مصداقية العيان اللى موجود فى المستشفى عن عيان العلاج النفسى الفردى أعمل إيه؟

د. يحيى:

كل ما فى تعقيبك هذا هو جيد، لأنه صادق، وهو جزء لا يتجزأ من مهمتنا، وفريق المستشفى يطمئن إلى الوسط العلاجى عادة (إن وجد هذا الوسط فى المستشفيات التى تتصف بذلك) أما مريض العلاج النفسى على مستوى العيادة الخارجية فقد يكون أكثر توجسا وأقل انفتاحا.

أما عدم تصديق المريض أو عدم فهمه، فهى مرحلة غالبا، وهى تتغير إلى أحسن - عادة- باستمرار العلاقة، وتزايد الطمأنينة.

أ. محمد المهدى

حضرتك قلت أن من حق أى مريض أنه يتعالج، ولازم علشان المعالج يكبر ويتعلم ما يستسهلش أنه يرفض عيان فى بداية العلاج أو بداية تعلمه، ولكن لو المعالج بقى له فترة بيشتغل مع

مريض ووصل لمرحلة إنه مابقاش مستحمل يكمل معاه، أمتى، يبقى من حقه أنه ينهى العلاقة العلاجية وإيه هيه المبررات أو المحكات اللى تعرفة إنه أعطى فرصه للمريض ولنفسه بحق قبل أن يفكر فى إنهاء العلاقة؟!

د. يحيى:

على المعالج أن يسأل نفسه، فى هذه الحال وغيرها سؤالا محدداً "إلى أين سوف يذهب المريض بعد إنهاء فرصته معه"؟

هل يوصى له أن يتوقف عن العلاج لأن هذا أفضل له؟

هل يذهب لزميل آخر تلقائيا؟

هل سيستوعب المريض خبرته الناقصة ويكملها وحده؟

هل سيصاب بمضاعفات أكبر لو أنه كان قد أكمل؟

وغير ذلك!!.

وما أصعب ذلك!!!.

أ. محمد المهدى

إذن ليس من الضرورى أن يصدق المريض فى كلامه فى بداية العلاج (بمعنى طرحه لكل ما بداخله) ولكن من حقه أن يطرح ما يراه مناسباً حسب المرحلة التى وصل إليها وفى الوقت الذى يحدده هوه من حقه مايتكلمش إلا إذا أطمن.

د. يحيى:

نعم

والمسألة بعد ذلك- وقبل ذلك – تتوقف على خبرة المعالج فى استكمال المسيرة، وكشف المستور.

أ. محمد إسماعيل

عايز اعرف بعد قد إيه أحكم إن المريض مش بيستفيد؟ وهل معقول إن فيه مريض مابيستفيدش حاجة خالص أن شاء الله لو العلاقة دى ماكانتش كاملة، أو ما استمرتش؟

د. يحيى:

لو أن العلاج جاد، ومسئول، فالفائدة واردة لا محالة مهما قصرت المدة.

أ. محمد إسماعيل

حضرتك ما اديتشى المعالج حقه فى الضجر، مع إنك علمتنا إن الواحد عنده حق فى كل حاجة.

د. يحيى:

أعتقد أننى أعطيته حقة فى الضجر، ولكن ليس حقه فى أن يكون هذا الضجر مبررا للإنهاء بدرجة متواضعة من المسئولية.

أ. محمد إسماعيل

يبدو أنه من الضرورى أن أتعلم أن أعمل على قدر المتاح من المعلومات، مع احترامى لعدم مصداقيه المعلومات، وأن أعمل مع ذلك دون ضجر، مكتفيا بالمحكات العمليه، وأنها هى المقياس الاول فى عملية العلاج، وإن أعطى اللى باحبه زى اللى مابحبوش، وأن استحمل....

د. يحيى:

ياه يا محمد، هذا هو، بشكل عام، إلا قليلا، هذا هو.

يبدو أن هذا الباب يؤدى دوره بكفاءة،

شكراً.

أ. عبير رجب

بيتهيألى لو جاى لى مريض عاوز يتعالج، وحاينقطنى بالمعلومات زى ما هو وارد فى الحاله، اعتقد انى هأزهق منه وأحس بقلة حيلة، ما هو طالما عاوز يتعالج يبقى لازم يساعدنى علشان أساعده.

د. يحيى:

وهل يوجد فى العلاج "يبقى لازم"؟

أهم ما هو لازم على المريض هو أن يحضر للعلاج، ما دام قد قرر العلاج، أما بعد ذلك فالمسئولية مشتركة طول الوقت، على العلاج أن يتواصل بأى قدر من المعلومات التى عادة ما تتزايد باضطرد مع نمو العلاقة.

د. محمد شحاتة

نحن قبل كل شئ بشر، نحتاج إلى أن نرى نتائج المجهود الذى يبذل مع المرضى فى شكل تحسن واستقرار. ورغم أنى بهذا ألتمس العذر للزميل مقدم الحالة إلا أننى على الناحية الأخرى أخشى من أن يصبح ذلك هروباً من المسئولية.

د. يحيى:

نعم، طبعا، النتائج تشجع بلا شك، والخوف من الهرب من المسئولية وارد، والإشراف (بما فى ذلك الإشراف الذاتى) يساعد فى حفز الاستفادة من النتائج، وأيضا فى التمييز بين الهرب من المسئولية وبين حسن التوقيت لقرار التوقف أو إعادة التعاقد.

د. مدحت منصور

متغاظ أنا من موقف الدكتور مختار وأرى فيه تعنتا شديدا دون سبب واضح، شئ محير، هل هناك شئ ما فى شخصية البنت، أو تركيبتها أو هيئتها، أقصد شئ يجعله لا يطيقها بهذا الشكل، إذا كانت البنت لا تطاق هكذا من أول خمس جلسات فهى فعلا محتاجة لكثير من

المساعدة. نبهنى ذلك إلى أهمية الإشراف بكافة أنواعه ومنه مقابلة الأستاذ للمريض مع معالجه كل أربع جلسات لفرملة التعنت بكافة أشكاله.

د. يحيى:

لا أظن أن فى المسألة تعنت كما تقول.

لكن عندك حق فى أهمية الإشراف فى هذه الحالات.

د. مروان الجندى

أحيانا يكون المريض كتوما بدرجة تجعل عملية أخذ المعلومات تبدو فى صورة تحقيق، وهذا يجعل المهمة ثقيلة مما يجعلنى قد أرغب فى إنهاء العملية العلاجية مع المريض بعد بدايتها بقليل.

كيف يمكن التغلب على ذلك؟

د. يحيى:

أنت فعلا تتغلب على ذلك، بإقرار ذلك!!

وبعد ذلك، وأيضا قبله يأتى دور الاستمرار والإشراف.

د. طه رحمانى

احد الاسباب فى فشل العلاج مع اى مريض ان الدكتور يكون حاطط الساعه جنبه وبيعد الثوانى ويشوف جيب المريض

د. يحيى:

لا أظن، أو على الأقل ليست هذه هي القاعدة،

من حق الطبيب أن يحدد الوقت الذى يراه مناسبا لصالح المريض باتفاق مقبول. الالتزام مطلوب حسب الاتفاق لا أكثر ولا أقل، والمسألة ليست دائما بالكمّ (كم الوقت) وإنما بكل التفاصيل، بما فى ذلك حذق الصنعة، ودقة المحكات التى نقيس بها مسار العلاج، وموضوعية العلاقة... الخ.

د. طه رحمانى

دكتور انا عانيت من المشكله دى فى بدايه علاجى من الاكتئاب

دخلت على الدكتور قال لى مالك يا طه قلت له دكتور عندى اكتئاب قال لى طيب اكتئاب ومافى ولا كلمه زياده وخذ الدوا دا

الحمد لله الدواء كان فيه تغير فى حياتى طبعا بس الدوا من الدكتور الاول كان ناقص

تخيل دكتور يقول لى طه انت تخيل نفسك دايما تشوف احداث سبتمبر بحيث تمنع عقلك من التفكير والتشتت الى ان قلت لنفسى روح مستشفى عام فى دبى

الحمد لله هناك كان العلاج فى اول مره مختلف سمعنى الدكتور كويس لكن الجلسات الباقيه كانت ثلاث كلمات كما هى العاده الى الان

انت كويس

الدوا كويس معاك

شغلك كويس

اكتب موعد كمان شهر مع السلامه

د. يحيى:

هذا الاختلاف بين طرق العلاج وارد، وفى كلٍّ خير ما،

وعلى صاحب الشأن (المريض) أن يختار ما يلائمه، ومن يلائمه، وأنت كما ترى تحسنتَ بشكل ما بدرجات مختلفة، على أنواع مختلفة من العلاج.

د. طه رحمانى

الدكتورة هاله فخرى لما رحت عندها غيرت فكرى تماما

اللهم لك الحمد

الله يرزقها ويرزقك خير الدينا والاخرة يا دكتور يحيى

اشكرها واشكرك

د. يحيى:

د. هالة من تلامذتى فى فترة باكرة (ليست باكرة جدا) وبصراحة أنا فرح بما يبلغنى منك، فهو يطمئنى على ما تبقى من تدريبها الذى نضج لينضج بكل هذا الخير، مع أننى (وأعتذر لها) لم أتوقع ذلك منها أو لها فى بدايات تدريبها.

د. طه رحمانى

دكتور الى الان مش عارف اول مره خرجت منها فى العلاج الجمعى كيف كان احساسي

حسيت ان كل الطبقات والحواجز الى كنت عاملها فى بالى راحت

كل الضعف الى كنت اعانى منه راح

حسيت ان قناع الطيبه قناع عدم الجديه كلها راحت

حسيت ان مش عارف دكتور حاجه فعلا تغيرت فينى

مش عارف ايه هى

بس حاسس بتغير شديد من ورا العلاج دا

حسيت انه الحلقه الى كنت انتظرها من زمان

شكرا لك على سماعى دكتور

د. يحيى:

أنا الذى أشكرك وأشكر د. هالة، وأحمد الله أن هذا النوع من العلاج (العلاج الجمعى) وهو الذى أقوم بالتدريب عليه منذ أكثر من ثلاثين عاما، قد بقى منه ما يفيد هكذا.

أ. رامى عادل

لازم العيان يجيى، والدكتور يشغل دماغه، والدكتور مش لازم يعرف كل حاجه، هو مش س وج، ومن حق العيان يكون ليه اسرار، الدكتور يعرف اللى يفيده ويفيد العيان، انما العيان مش يعرى نفسه على الفاضية والمليانه، ده حتى كده ممكن يتعود انه يعيش عريان ومايحافظشى على اسراره، ثم ايه هو المحك، انا طبيب يعرف ايه؟، هو بيقيس بايه؟ كل طبيب له ادوات، ومش لازم العيان يكون كتاب مفتوح، صحيح اللغه التنقيطيه ممكن تكون مش مستحبه، بس العيان يتعلم ميكشفش كل ورقه، وبصراحه العيان بينجرح اوى لما بيتعرى جوه الجلسه، وساعات بيطلع عريان والطبيب مش ساحر عشان يعرف يداوى كل الجروح، انا فى الأساس باتكلم ان العيان ميقولش كل حاجه ولو لطبيبه، لان العلاقه دى فى الاساس بيتقاس عليها كل علاقات العيان، يعنى اللى بيعمله مع الطبيب حايقوله مع التانيين، وبكررها مش من حق الطبيب يعرف كل حاجه، وكل عيان واللى بيوصل له، ولازم العيان يعرف يقول ايه اللى يفيده والى فى مصلحته، انما يا فرحتى لما يكشف نفسه لنفسه، انماطول الوقت احنا بنخبى حاجات وبنقول حاجات، وده اللى لازم الدكاتره يعلموه، انهم من حقهم يخبوا، ومايعروش نفسهم، ومايسمحوش لحد انه يخترقهم.

د. يحيى:

بصفة عامة، هناك منطق سليم فى كثير مما ذكرت ولكن..

لاحظت هذه المرة قدرا كبيرا من "اللزوميات" وتحديدا واضحا للقدر المسموح بتعريته، والقدر المطلوب إخفاءه، وكأن المسألة بيننا. (المريض أو الطبيب) تجرى هكذا بهذه البساطة.

يا رامى أنت سيد العارفين أننا لا نعرف – حتى مع أنفسنا – أى قدر يمكن تعريته وأى قدر ينبغى اخفاؤه سواء من المعلومات أو مما بداخلنا، لأننا أصلاً لا نعرف – غالبا – ماذا نخفى.

* * * *

"فصامى" يعلمنا (6): (الحلقة السادسة)

(العين الداخلية "أداة الحس الداخلية" وموضوع السفر)

د. حسن سرى

"اللجوء إلى الله فى هذه الحالة قد يشير إلى الاستنقاذ بالقوة العليا الضامة المركزية "لا إله إلا الله"، وهو يفيد فى إجهاض المرض لو كان التوجه غير سطحى".

ارجو من سعادتكم توضيح هذه العبارة بشكل اوسع.

د. يحيى:

هذا المعنى الذى أردت توصيله فى سطرين وثلاث كلمات، هو أكبر من أن أوضحه فى خمسة كتب، أنا لا أدعى، لكننى أعتذر.

إنه معنى تجمع عندى منذ وعيت معنى "وجودى الفردى جدا، المشترك بين الناس فى نفس الوقت" إن صح التعبير.

ثم بدأ يتجلى لى فى تلك الفرصة العجيبة التى عشتها وأعيشها منذ أربعة عقود وأنا أمارس هذه الخبرة المسماة العلاج الجمعى، وإذا بى أشاهد (هذا المعنى) يتخلق أمام ناظرىّ تخلقا يكاد يكون عيانيا، تخلقا يجمعنا إلينا إليه، (أنا أتكلم عن العلاج الجمعى وليس عن خبرة صوفية)

وبمرور السنين، سنة ثم سنة حتى اربعين إلا عامين، تأكدت من هذه القوة العادية الآنية (وليس بالضرورة العليا) الضامة المركزية، ثم امتدت بى الرؤية إلى أن أرى من خلال نسيج ما يسمى "الوطن" ..... وهو ما أشرت إليه فى تعتعة الاسبوع الماضى التى لم يلتفت إليها – بالقدر الكافى – حتى محمد ابنى،

حين تتخلق القوة العادية المركزية، تصبح ضامة، حيث يتخلق وعى الجماعة متوجها لينسج وعى الثقافة الفرعية إلى الوعى الوطن إلى القوة العليا الضامة المركزية؟!.

هذه القوة فى صورتها الكونية ليست إلا قوة واحدة وإلا كيف تكون ضامة ومركزية،

ومن هنا تملأ لا إله إلا الله (وأيضا إله واحد آمين...الخ) تملأ هذه القوة وجود الفرد فالكون بلا نهاية محددة، تملأ كل من يسعى إليه (وأحيانا حتى من لا يسعى إليه) فهى حقيقة قائمة بذاتها لا تعتمد على أن تصل أو لا تصل إلى غايتها المفتوحة أبدا،

آسف،

هذا غاية ما يمكن أن أرد به على استيضاحك الآن. وأعتقد أنه أضاف مزيداً من الإغماض، وليس التوضيح

عذرا.

* * * *

حوار/بريد الجمعة

د. عمرو دنيا

لما راجعت نفسى وحاولت أشوف أنا لم أتفاعل ليه مع الحالة المستمرة ولم أعقب عليها وجدت أنه ربما لزيادة الجرعة فأنا أحضر المرور يوم الثلاثاء والحالة تعرض يومى الثلاثاء والأربعاء، فلعلى أكون اكتفيت أو شئ من هذا.
كما أن صورة العرض الحى يوم الثلاثاء قد تكون أيضا فارقاً يدفعنى للبعد عن العرض المكتوب – المقروء حيث درجة التفاعل تكون أقل.
وقد لا يكون هذا ولا ذاك .. لا أدرى.

د. يحيى:

عندك حق

عندك حق، حتى فى السطر الأخير "وقد لا يكون هذا ولا ذاك، لا أدرى".

وأنا أيضا لا أدرى.

لكننى مصمم.

لكن دعنى أسألك: أليس علىّ أن أوصل ما عندى بأية طريقة لمن ليس له فرصة لحضور اللقاء التدريبى يوم الثلاثاء؟

ضع نفسك مكانه لو سمحت.

ثم ضع نفسك مكانى.

د. محمد أحمد الرخاوى

ذكرتك يا عمى فى الاسبوع الماضى باهمية وضع الفصام كفرض كاملا كى يتابع معك من يتابع رابطا الفرض بالتطبيق ومازلت انت مصر على ربط كل ما يصدر من المريض بتفسيره فقط فى اطار هذا الفرض دون ان تطرح الفرض متكاملا.
ما هو الفرض؟؟؟؟
انت تقول ان الفصام هو فرض معكوس الحياة ماشى ومفهوم بس ده غائية الفصام وليس الفصام نفسه.
وهو تحطيم الحياة لمن لم يستطع ان يبدع او ان يتوالف او ان ينمو ولكن اشتم بين السطور ان هناك فرض اشمل انت تحاول ان تخرجه كاملا وتتحفظ.
الفرض يقول ان هناك مخ اقدم وذوات وتوالفات وابداعات ثم ازمات نمو وطفرات تطور ثم انتكاسات واحيانا انشقاقات قد تتفسخ وقد تلتئم وهكذا مما يفهم او يدرك بين السطور.
نريد السطور نفسها يا عمى
فلتخرجها كلها لنا فى دفقة واحدة ولتصب او تخطئ
ارى ان ليس هناك حل آخر وقد آن الآوان
السيكوباثولوجى او إمراضية الفصام مرتبطة تماما بهذا الفرض.

د. يحيى:

أشكرك يا محمد على إلحاحك

ولكن أرجو أن ترجع إلى ردّى السابق على نفس اقتراحك، وأن الفصام (معكوس الحياة دون موت) هو أكبر من أن يحتويه فرض واحد.

لأن الحياة هى أكبر من أن يحتويها فرض واحد.

أليس كذلك.

* * * *

يوم إبداعى الشخصى: (شعر: ولم تُهل بعدُ الترابَ فوق رحلة السلامة)

أ. رامى عادل

ما اسخف الاما نه البلاهه.. خاصه مع طبيبك، ارجو الا يفهم هذا على انه تحريض، ولكنها دعوه مستمره الا يظن القراء ان من حق اى مخلوق ان يطلع على اسرارى (مش انا بالذات) حتى لو كان طبيبك النفسى، ايه رايك يا عم يحيى، البيت ده رن جوايا مع حلقة امس حول استعجال الطبيب انه يعرف، ويمكن ده يجر العيان انه يهر او يكشف ورقه اللى ممكن يفيدهم هم الاتنين لو فضل سر/طاقه، هل توافق ام تلعن اليوم اللى عرفتنى فيه؟ وللمره الاخيره انا منشن عل بيت ده عشان فكرنى بورقة امبارح ومالوش ولا ماليش دعوه ببقية الشعر، هو البيت اللى اختار موقفه، وزهقت من ايه مناسبة اللى بتقوله باللى احنا بنقوله، زى ما حصل مع د.محمد احمد الرخاوى، امال يا عم يحيى ده انتم ابهات الالغاز واللغه رتمات، والعلاقه بالموضوع، ولا احنا هنتكلم زى العقلاء، فكرتوزنى بعنبر العقلاء، احنا مش زيهم، احنا بنقسم وكل واحد وشوقه واللى يشوفه.

د. يحيى:

"عنبر العقلاء" "حلوة هذه"

وأيضا

"اللغة رتمات"

د. مدحت منصور

استدراك
"ولم تهل بعد التراب فوق رحلة السلامة" "تلفع البراق بالبساط فماتت الأحلام تحققت"
ألا يعنى ذلك الوطن الثالث فى نهاية الرحلة.

د. يحيى:

لا

د. مدحت منصور

أحسست أنها (ولم تهل بعد التراب فوق رحلة الولادة). وصلتنى "الأمانة البلاهة" ربما لأنى لا أجيد غيرها وأحيانا تخرج "الكذبة العشواء" "تلقفتَ تلكَ الحنونُ ركْلَ طِفلها العنيد، ومهّدت له المسارْ. أعدّت الغطاءَ والرضاعْ. وأدفأتْ جوانبَ الرحمْ. واضح أن الطفل يخرج من رحم إلى رحم أليس هذا ما كنا نعنيه يا أستاذنا بمعنى الوطن أو الوطن الرمز؟

د. يحيى:

ليس تماما

*** * * ***

تعتعة: الوطن: وعىٌ يتشكل!! إياكم أن يتخثَّرَ

د. محمد شحاته

كيف بنا يا دكتور يحيى ونحن نوجه كفاحنا اليومى تجاه الحفاظ على قيمة الوطن - النفسى فى مقابل هجمات الوطن - المادة والوطن - الآنا. ألا تذكر طعم الخبز فى أيامكم يوم كان الوطن "بتاعنا"! وكيف نتذوقه اليوم وأنت تبحث عمن يحمله معك - أو ما تبقى منه!.

د. يحيى:

لم يصلنى تحديداً ما تقصد.

لكنك أتحت لى فرصة أن أنبه أننى لم أقل أن هناك وطن نفسى، ووطن "مادة"

أنا تكلمت عن "الوطن الوعى" دائم التخلق بنا وفيما بيننا،

وهو بذلك عندى كيان عيانى وليس مفهوما مجردا يوصف بأنه نفسى أو غير نفسى.

ولنا عودة.

أما كلامك عن طعم الخبز فأرجو أن تعفينى من الرد عليه فأنا من الذين لا يتغنون بالماضى.

د. عمرو دنيا

مازالت كلمة وطن تعنى لى الكثير مما لم أستطع صياغته أو التعبير عنه، كما أننى حتى الآن لم أقرأ ما يروى ويؤدى هذا المعنى، ولكن هذا المعنى موجود بشكل ما ونوع ما.

د. يحيى:

يا ليتك تقرأ ردى على محمد شحاته الآن، ثم تتابعنا الأسبوع القادم أيضا.

د. مروان الجندى

رغم ما أكدته حضرتك عدة مرات على أنه من حقنا أن نأخذ ما نريد ونعتبر ما نريد ملكا لنا حتى لو لم يكن كذلك حقيقة إلا أننى بدأت أعتقد أن هذه البلد لم تعد ملكاً لنا وأن هذه حقيقة تفرض علينا.

د. يحيى:

يا أخى، يا أخى، يا مروان يا إبنى، أن تكون البلد ليست ملكا لنا، هذا أدعى أن نأخذها لنا، نحن أولى بها ممن سرقوها منا يا أخى.

هيا.

د. إسلام إبراهيم أحمد

لأن الوطن هو نحن ولأننا فقدنا تواصلنا ربما بسبب ظروف الحياة أو بسبب أنانيتنا لهذا فقد ضعف معنى الوطن أو وعى الوطن لدى الأجيال الصغيرة.

د. يحيى:

نعم: الوطن هو نحن حالة كوننا وعيا جماعيا لكننى لا أقصد "وعى الوطن" (مضاف ومضاف إليه) ولا "الوعى بالوطن"، وإنما أقصد مرة ثانية وعاشرة "الوطن الوعى المشترك حالة كونه يتخلق باستمرار".

د. إسلام إبراهيم أحمد

أحيانا يا د. يحيى أشعر أننى كرهت وطنى ولم أعد أحبه لكن فى نفس الوقت لا أريد غيره، كيف هذا؟

د. يحيى:

برجاء أن تراجع نشرتى: "إننى لو لم أولد مصريا"، "ثم لوددت أن أكون مصرياً".

ثم قبل هذا وبعده يومية هذا الـ "شىء ما".

أنت تكره وطنك لأنك تحبه.

ولنا عودة.

د. محمود حجازى

رغم كل المعانى التى تؤكدها حضرتك فى هذه التعتعة إلا أننى لم أستطع أن أرها وسط كل هذا الكم من التشوية لقد شوهوا كل معنى جميل، لما هو وطن، أصبح الوجود فى الوطن هو الذل والإهانة وفساد يزكم الأنوف، أرجوك لا تقل لى أنها مصرنا غصباً عنهم، ولتقرأ حضرتك قصيدة فاروق جويدة. "هذه بلاد لم تعد كبلادى.

د. يحيى:

الشعراء شعراء
وتخليق الوطن من جديد، وجديد، وليس من فراغ، هو شعر أسبق وأجمل.
أ. منى أحمد فؤاد
جملة "وعنيك تشعلق كل مادى وتنسى طين الأرض مصر" تطلق كل على حد سافر الخارج ونسى هوه منى ومنك وعاوز إيه، وهى جملة بتفكرنى بناس أعرفهم بيسافروا وينسوا أبوهم وأمهم، وحتى أولادهم عشان الفلوس، ولما باسألهم ليه مش حايرجعوا بيقولوا إحنا هنا متهانين أوى ومصر ما بقاتش لينا.
د. يحيى:
لا أحد يهان فى بلده إلا إذا تخلى عنها (هو تخلى عن بلده، وليس بلده التى تخلت عنه).
والذى لا يريد أن يعود حلال عليه، ربنا يهنيه ويبارك له.
والذى يعود، عليه أن يشارك من تبقى فيها وهو يتحمل الإهانات التى يزعمها أو التى تجرى فعلا
هى عملية، وعى مشترك، لا يضع شروطا لمن يشارك إلا أن يشارك.
أ. منى أحمد فؤاد
الوطن بالنسبة لى كلمة تتقال بس مش باحسها إلا فى مواقف معينة وساعتها جسمى بيقشعر وأحس بجد أننا بلد واحد ووطن واحد أحيانا باحسها لما يكون فى ماتش كورة والناس كلها فى نفس الوقت مع بعض تقول جون على الرغم إن الذى جمعتهم هى حاجة بسيطة، بس باحسها بجد.
د. يحيى:
مرة أخرى: هذا ما قصدته "*بالوطن الوعى المشترك حالة كونه يتكون*".
لكن هذا الوعى المشترك ليس مؤقتا، وليس له عمر افتراضى، طالما كتب علينا أن نعيشها (الحياة) معاً لنكون بشراً معا، فى موقع بذاته.
أ. رامى عادل
اشعر وكان عملى هو وطني، وكان العملاء هم رجال هذا الوطن بكل ما يحتوونه من تناقضات شهيره، وطنى هى المطلقه العبوس الفاتنه المشرده، هى كذلك امى ووطن حنون،، اشعر وكأنك ترفرف كالعلم يا عم يحيي، الوطن هو الشارع بكل ما يحمل من هم وصخب ودعوات، الحمار والسياره والمتاجر، وبائعة الخبز هم كذلك، الصعايده بكل ما اوتوا من قوه وصلابه هم كذلك، الوجوه، الروائح، المقاهى، التيه، عصير القصب وبائع الفول، منزلى وحذائى وباب اللوق وعابدين والدويقه، والصحف والاعلام والابيض والاسود، والهام شاهين واحمد عز، ومجلس الشعب وطفولتي، واطفال المدارس والذكريات والروبابيكيا، والحمامات العموميه والفنادق التى لا اعرف ماذا يحدث بداخلها حتى الان.واخيرا انا فهمت لماذا تتعاطف مع حسن نصر الله هذا حقك وحقنا عليك، فهو يشبه كل واحد فينا مهمالان او تعجرف ، وهو انسان بداخل كل منا اللهم اخذيك يا شيطان، والله يعطيك العافيه يا عم يحيي...
د. يحيى:
ماذا جرى يا رامى، أكثر الله خيرك
هأنذا أضبطك وأنت تصوّر لنا بالتصوير البطىء معنى تلك الجملة (الصفة) التى كررتها فى محاولتى تقديم مفهوم *"الوطن الوعى المشترك حالة كونه يتخلق باستمرار"*، هأنذا أضبطك وأنت ترصد هذا الوعى المشترك "حالة كونه يتخلق باستمرار، ليتهم يتابعون هذه العملية بالتصوير البطىء هكذا، إذن لتفاهمنا أسهل.
د. مدحت منصور
وصلني الفرق بين نصر الله بشحمه و لحمه و نصر الله الرمز و ما ينطبق على نصر الله ينطبق على عبد الناصر بالنسبة لجيلي مواليد 1961 و هذا يفسر معنى عبد الناصر و الذي ارتبط بالعزة و الكرامة و الحلم المقدس (الوطن الأكبر) و ارتبط الوطن به و لم يرتبط بالسادات مع أن الأول أتى بهزيمة 67 و الثاني أتى بنصر 73 مثلا . عندما يذكر الوطن يقفز في ذهني أول ما يقفز عم حسن الدرعة البقال الشاب وقتها و الذي يوحي شكله بالاحترام و الأمانة و الجدية و معاملته الطيبة لطفل يأخذه البقالين باستخفاف ثم عم ابراهيم بتاع الفول ثم الطابونة الأفرنجي بدفئها في ليالي الشتاء و شجرة خضراء لا أدري إن كانت موجودة للآن ام لا، لا أعرف مكانها تحديدا, تتسع الدائرة لتشمل باقي الحي و الناس ثم المدرسة و زملائي و هكذا. السؤال لماذا أشعر بالفخر عندما أزور مقبرة العائلة و أجد أسم جدي المرحوم معلقا عليها و كأننا نمتلك السحاب؟ السؤال الثاني إن ما يمتلك عمارة أيا كان موقعها و مستواها يشعر شعورا خاصا هذا الشعور لا يعادله شعور امتلاك الملايين و الملايين ما الفرق؟
د. يحيى:
لمحت ربطك الوطن بشخص بذاته، ثم بمكان بذاته.
هذا وارد خاصة بالنسبة للمكان.
لكننى تكلمت فى مقالى عن نصر الله عن "معنى" شخص ما، وليس عن "شخص" بذاته اسمه نصر الله، بل إننى تكلمت عن معنى آخر دون أن أجنس الشخص حقه ، فأنا لا أعرفه بدرجة كافية محيطة.
آسف دعنا ننتظر التفاصيل لاحقا.
د. محمد أحمد الرخاوى

استغرب فعلا ممن يقفون على موقف نقيض من حسن نصر الله الرمز قبل وبعد تشيعه. وهذا يخصه وحده (اللى ما لقاش فى الورد عيب قال دة احمر الخدين)
والاغرب ان من ناقديه من يحسبون على قائمة المستنيرين المبدعين الغير متشنجين.
استغرب من موقف رامى عادل وهو يكاد يقف من مغالاته فى --تقريبا-- سبابه-- فى نفس الموقف الذى يسبه فيه وهو التشنج.
والله فعلا اصبت بالاحباط اكثر حين قرأت البريد ووجدت ان الكثيرين لم يلتقطوا المعنى الآخر لحسن نصر الله اكثر من حسن نصر الله نفسه ثم ما المانع ان يكون هو حسن نصر الله نفسه وهو الذى حارب فعلا ولم ينافق فعلا ولم يداهن فعلا.

د. يحيى:

من حيث المبدا، لا مانع، شريطة أن ألم بمزيد من التفاصيل
لكن هناك مانع عندى حاليا نظرا لنقص معلوماتى السياسية، وبسبب خيبتى البليغة فى حكاية "التفكير التآمرى"، مع أنه من حقوق الإنسان!!،
العجيب يا محمد أن أحدا لم يعرف أن يفرق بقدر كاف بين حسن نصر الله "الشخص"، وحسن نصر الله "المعنى"، ثم حسن نصر الله المعنى "الآخر"،
أين ذهب منهم تحديد العنوان هكذا، وأين كلمة "آخر"، بل أين كلمة "معنى".

د. محمد أحمد الرخاوى

ثم ألم ينصت احد لخطاب احمدى نجاد فى مؤتمر دربان 2 للتميز العنصرى.

د. يحيى:

أنا لم أنصت لخطابه هذا، ومع احترامى له، وتحفظى جدا عليه، لا أريد أن أعلق على خطاب سمعت عنه ، ولم أقرأ تفاصيله، ثم إننا - عموما - لسنا فى حاجة إلى خطاب أو مؤتمر أو تصريح، ومع ذلك فملاحظتك لها دلالتها، شكرا

د. محمد أحمد الرخاوى

الظاهر ان هناك فعلا ازمة هوية واختلال وعى وضلالة فكر ثم وقبل كل هذا وبعد كل هذا اصرار على فقدان معالم الذات لحساب اللاشئ.
لا حول ولا قوة الا بالله.

د. يحيى:

ثانية (تانى)!!! رجعت إلى نغمتك القديمة يا محمد "تانى"، لماذا بالله عليك؟

د. على الشمرى

اوافقك استاذنا العزيز اننا فى هذه المرحلة الحساسة لامتنالا نحتاج مزيدامن الاعداء فاعداءنا المتربصين بنا كثربالاضافة الى المرض والفقر والجهل الجهل الذى يتم استغلاله من الاعداء والطامعين فى السيطرة على هذه البقعة من العالم لموقعها الاستراتيجى والتاريخى ولوجود المواد الخام التى يحتاجونها حاليا وايجاد صراعا تعرقية ومذهبية لا تنتهى وزرع الدسائس والمؤامرات التى لاتخدم قضايانا فالضجيج الاعلامى وحملات التخوين والتشويه ضارة جدا بالجميع واعتقد اننا بحاجة ماسةللعقلاء والواقعيين وايضا المقاومين الشرفاء المقاومة البناءة ويقول الشاعر العربى الا لا يجهلن احد علينا. فنهل فوق جهل الجاهلين.
والزعماء العرب الواقعيين هم صمام الامان فى الوقت الراهن لعدم تكافؤ القوة بيننا وبين الخصوم مع المطالبة بالمهارة السياسية وادارة الصراع كما يفعل خصومنا وشكرا للجميع.

د. يحيى:

أنا لا أعرف تعريفا لتعبير "الزعماء العرب الواقعيين"
الواقعية عندى فى تاريخنا الذى وعيته هو أن نعلن الهزيمة حين ننهزم، ونتحمل مسئوليتها،
الهزيمة ليست استسلاما لكنها واقع مر،
وهو واقع يلوح ببداية مختلفة لمن يستطيع أن يحمل مسئوليتها لا يمنعه عن ذلك تجرع مرارة الهزيمة، لا الاستسلام.

أ. رامى عادل

اما تشنج راي السياسى، فهو لانى باتشنج بدورى فى بعض الاحيان واكره هذه الصفه، وأدعى انى اتغلب عليها، بتحب حسام حسن بتاع الكوره مثلا، انا مابحبش فيه عصبيته، واحترم حماس وجهاد نصر الله، وربنا ياخد بيده بس مش بالغضب الملعون، لازم يهدى، انتم اللى علمتونا، اننا نوطى صوتنا. ومش بس كده، لا منسبش الحبل على الغارب، ومنثقش فى افكارنا، ومن كتر مبشوف مجانين، شايفين نفسهم مهديين، بكره كل حاكم متسلط، ادعو الله ان يتمم عليك وعلينا نعمة الجهاد اما بالنصر او بالاستشهاد، ياعم يحيى حلمك علينا، احنا التلامذه وبكره لينا، دماغنا هتضيع مش كده! ربنا معاك

د. يحيى:

أنا لم أشاهد نصر الله الشخص ولا مرّة واحده، ولا أعرف شيئا عن غضبه الملعون هذا.
ثم إنى لم أعلّمك، أن توطى صوتك ولا أن تخفى رأيك يا شيخ.
... إلخ.
شكرا أن وصلك رفضى لرأيك السابق .
هيا معا

* * * *

حوار بريد الجمعة

د . محمد يحيى الرخاوى

راجعت ما طلبتم منى مراجعته جميعاً والحق أننى توقعت موقفاً يتجاهل النقطة الأساسية التى حاولت أن أوضحها فى الرد الأول: نحن المصريون اخترنا اختياراً واضحاً تجاه إسرائيل، وهو اختيار قابل لأن يقال عنه إنه اختيار أمة هى "نحن المصريون".

وإذا كان من الواضح أيضاً أننا كمصريين نعانى من أزمة انتماء وهوية وهدف مشترك وانهيار ثقافة إلى آخره؛ فلا يصح أن يكون الحل هو تدمير خفى لاختيارنا الذى هو جزء من هويتنا أو نحننا، والذى مازلت أنظر له بفخر، حتى ولو لم يكن قد اكتمل فى الـ30 عاماً الأخيرة.

د. يحيى:

شكراً على ما فعلت ، لكننى لم أنشر رأيك الأول أصلا حتى تتهمنى بتجاه النقطة الأساسية، وأنا أصدقك أنك راجعت ما طلبت منك مراجعته، لكن خيل إلى أنك فعلت ذلك فى عجالة، أو لعلى أنا الذى لم أستطع أن أوضح لك مغزى دعوتى هذه، وبقدر ما تصورتَ أنت تجاهلاً للنقطة الأساسية (لا أعرف من أين جاءك هذا التصور) خيل لى أنا أيضا أنك لم تلتقط النقطة الأساسية لا فى التعتعة الأولى ولا الثانية ولا فى اختلاف أراء المشاركين ولا فى ردى عليهم ولا فى الفرق بين "معنى" حسن نصر الله وبين "شخص" حسن نصر الله، ولا فى أنه معنى "آخر" ... إلخ،

(ثم ها هو اليوم حوار لاحق حول نفس التعتعة لك أن تنظر فيه أيضا إن شئت)

ولعلى مخطىء تماما فى كل ذلك.

أما حديثك عن اختيارنا "نحن المصريون" (و أنها مبنية على الرفع) فلا أعرف كيف تتكلم بالنيابة عنا بكل هذه الوثقانية،

فلا أنت تمثلنا،

ولا أنا أمثلنا،

ولا عبد الناصر، ولا السادات، ولا أبو تريكة، ولا أحمد زويل،

لقد ضاعت منا الـ"نحن" أصلا،

لكنها لم تضع بمعنى العدم، وإنما بمعنى أنها توارت بين تَحْنُنَاتٍ (جمع نحن) كثيرة كثيرة ، متباعدة متصادمة، حتى تخثر "الوطن الوعى" أو كاد ،

ولهذا تفصيل لاحق.

د . محمد يحيى الرخاوى

نقطة ثانية: عندما استغلوا الفرصة لفضحنا وتجريسنا أثناء حرب غزة، أسوأ استغلال وأسوأ فضيحة، مع تجاهل أن كل أسلحة غزة أو أغلبها جاءت عبر مصر وأنفاق مصر، أليس من حقنا أن ندافع عن "اختيارنا" الأسبق.

د. يحيى:

ليس عندى معلومات كافية عن هذا الذى جرى منا أثناء حرب غزة، وإن كنت أصدقك، ولم تكن هذه المرحلة أو النقطة فى بؤرة اهتمامى فى أى من التعتعتين، لا فخرا، ولا تهوينا.

ثم إننى لم أتعرض أصلاً "للخلية" إياها، إلا كاحتمال أنها خطأ وارد كان ينبغى أن نحتويه،

... أما بقية هذه الفقرة ، فأنا أراجعك ، ولا أعترض بشكل مباشر بشأن تعبيرك "تدمير خفى لاختيارنا"

د . محمد يحيى الرخاوى

نقطة أخيرة: رجعت إلى موقفى فى مقال"رسالة إلى انتحارى"، وهو فى نفس اتجاه ردى على سيادتكم بالضبط، فلم أفهم إلام تحيلنى عندما طلبتم منى مراجعته.

د. يحيى:

أولا ما حكاية "سيادتكم ه"ذه ؟

ثم دعنى أتقدم لسيادتكم بالأسف لأننى لم أكن أقصد هذا المقال بالذات، لقد أخطأتُ ، الظاهر أننى كنت أقصد مقالك "رسالة مفتوحة إلى موسى غرباوى"، (سطور – مايو 2005) وليس رسالة إلى انتحارى ، ومع ذلك فحين قرأتهما من جديد (المقال الخطأ والمقال الصواب) وجدت فى كليهما ما يفيدنى فى الرد الجاد على تعقيبك الأول حين تتاح الفرصة ولعلها تكون الأسبوع القادم. (لست متأكدا)

ثم دعنى استأذنك – ورغم معرفتى بضيق وقت المشاركين وصعوبة لغتك – أن أنشر مقاليك لهذا البريد لعل دائرة المشاركة تتسع قليلا، أو كثيرا فيكون الربط أحكم، والمناقشة أثرَى.

* * * *

ملحوظة:

ملحق البريد :

المقال الأول:

رسالة مفتوحة إلى مينا غرباوى

محمد يحيى الرخاوى

نشرت فى "سطور": العدد 102

تمهيد:

تصورت أن صديقى العزيز جداً مينا غرباوى -وهو من استضافنى وساعدنى بما لا يمكن وصفه ولا شكره بما يكفى فور وصولى إلى نيوزيلاندا مجرباً مشروع الهجرة- تصورت أنه قد أرسل لى متسائلاً عن تفاصيل الأحداث الطائفية الأخيرة فى مصر، فما وصله من أخبار لا يروى له ظمأ، ولا يوضح له رؤية، ولا يطمئن له بالاً.

تصورت أن رسالة مينا كانت شديدة الصراحة حيث ملأها عتاباً لكل المهونين من حجم معاناة المصريين المسيحيين فى المجتمع المصرى. كدت أتشمم رائحة عتاب موجه لى شخصياً، على الرغم مما يدركه مينا عنى. وكأننى فجأة لم أعد المغترب "المصرى" الذى يستضيفه مينا دون سابق معرفة، بل لمحض كونه بلدياته دون حاجة لأوصاف أخرى (مع علمه المسبق بأن اسمى محمد). تشممت فى رائحة عتابه كأنه اكتشف فجأة أننى عضو جماعة دينية مغايرة، وكأنها تحمل تهديداً لما ينتمى إليه.

أصابنى جزع، وكنت قد تحدثت مع مينا مرة واحدة فى جوهر المعتقد الدينى. تحيزت لإطارى (وما زلت) وتحيز لإطاره (ومازال، فى الأغلب الغالب، أو قل: بالطبع). كدنا نختد وكل منا يريد من الآخر أن يرى بعينه. خافت زوجتانا من حدتنا على علاقتنا، ولكنهما كانتا متفرجتين. أنا لم أخف، ولا أظن أن مينا خاف. لم يكن ما يحركنا إلا حب ورغبة فى الائتناس بكون الآخر يتمتع بما أتمتع. كنت أريد أن أقابله فى الجنة، ومن المحتمل أنه كان يريد أن يرانى هناك أيضاً (إلى جانب الرغبة فى بعض الشطارة فى استخدام الحجة والرغبة فى الفوز بالنقاش بداهة)؛ لهذا فأنا لا أعتقد أبداً أن الفوارق المعتقدية هى ما شكا منه مينا وعاتبنى عليه.

لماذ أشم تلك الرائحة الآن؟ لماذا لا أستطيع تفسير رسالته فى نفس الإطار الذى أفسر فيه حديثنا المشار إليه؟ كان علىَّ الرد على مينا، لا لأننى أريد أن أثبت شيئاً، ولكن لأننى أحب مينا فعلا. فيما يلى نص الرد على الرسالة المتخيلة.

عزيزى مينا:

وصلتنى رسالتك. كيف حالك؟

أما بالنسبة للأحداث الأخيرة؛ فـ "الأحداث الأخيرة" مصطلح أنظر له بريبة دائماً. عادة لا تحمل الأحداث الأخيرة جديداً، فهى دائماً نتيجة مقوماتها. ربما تحمل الأحداث إعلاناً للمدى الذى وصل إليه إنكارنا لمقدماتها، وسط إنكارنا لباقى المؤشرات فى حالنا. ربما كانت تواجهنا بتأجيلنا تحمل الألم الناتج عن مواجهة أنفسنا بما نحن فيه وإليه، بل ربما أيضاً بتأجيل فرحة اكتشاف أنفسنا بما تحمله من مخاطر النجاح فى تحقيقها. نعم الخوف من النجاح بكل ما يحمله من مخاطر تحمل مسؤوليات التغير: التغير من العجز والتبعية والجمود إلى الإسهام والحيوية والحركة، مخاطر الإلزام والالتزام بأن نكون موجودين، الآن ودون تأجيل.

أما بالنسبة لعتابك، فصدقنى يا مينا أنا زهقت من الكلام الذى أقرأه عن الوحدة الوطنية، ولا أريد أن أكرره نهائياً. زهقت من أننا المسلمين بنحب المسيحيين جداً جداً، وأنكم أيضاً تحبوننا جداً جداً. كلام يذكرنى بمادة التربية القومية التى كنا ندرسها فى المدارس زمان، فكرَّهَتْنى وكرَّهَت أمثالى فى ... (أستغفر الله وأعوذ به من الشيطان الرجيم). عموماً أحمد الله أنها مادة لم تستطع -على كل ما عاملناها به من كراهية وسخرية واستهانة- أن تجعلنى أكره وأسخر وأستهين بمصر, أدع معى الله ألا يقرروا على أولادنا مادة تربية الوحدة الوطنية. أنا لا أريد ابتذالها بالكلام، الكلام ينقص منها يا مينا.

ولكن حتى إذا كنت أحبك: ماذا أفعل مع نفسى وأنا لست أنت؟ وأنا أريد (فى هذه المرحلة من عمرى على الأقل) أن أظل أنا. ترى هل أعرف من أنا؟ هل يعرف كل منا من هو؟ كيف أختار أن أكون أنا دون أن أستفزك فتنكر علىّ حقى هذا وكأنه يهدد كونك أنت أنت، أو يستفز اختيارك أو يشكك فيه؟ ثم هل أنا هو أنا، وهل أنت هو أنت؟

من منا مسلم ومن منا مسيحى؟ سؤال طرح نفسه على بمجرد أن بدأت أستوضح معانى رسالتك. ما محكات إسلامى وما محكات مسيحيتك أو مسيحية سامح باخوم (مثلاً) وهو أول اسم مسيحى أرتبط به ارتباطاً شديداً فى السنة الأولى الابتدائية.

ألأن اسمى محمد يحيى الرخاوى تعتبرنى مسلماً ويوافق إخوانى المسلمون على احتمال دخولى الجنة (من حيث المبدأ) ؟ هل أنا وافقت على هذا الاسم (مع ما يحمله من دلالات) أو أتيحت لى فرصة للموافقة أو الرفض؟ أليس من حقى أن أُعَرِّف نفسى بنفسى، أن أُعَرِّف انتماءاتى بانتماءاتى؟ ألا أرغب أحياناً فى ألا يحكم على العالم (موظف جوازات أو أمن فى بلد غربى مثلاً) بمجرد قراءته للاسم (الذى اختاره أبى بجاملة عمى المغترب آنئذ، أو ربما ليأسرنى طول عمرى فى اختياره وفى نسبتى الدائمة له)؟ أليس من حقى أن أنتظر من العالم أن يسألنى عن اختياراتى وعن معناها؟ أليس من حقى أن يبذل العالم جهداً ليتعرف علىّ؟ ثم إلى أى إسلام من الإسلامات المطروحة أنتسب فعلاً؟ ما البدائل المتاحة لكى أسّمى كونى مسلماً اختياراً؟

لأسباب شخصية: أنا لا أنتمى لاسمى بشدة، فهو لا يميزنى. كان كثير من زملاء فصلى فى المدرسة اسمهم محمد، ولكنهم جميعاً كانوا يتمتعون بأسماء مركبة لا نعرفهم إلا بها. محمد كان اسماً رسمياً يبدو أنه يكتب فى شهادة الميلاد من باب التبرك باسم الرسول عليه الصلاة والسلام فحسب؛ فبينما محمد حسنى مبارك هو حسنى مبارك، وبينما محمد أنور السادات هو أنور السادات، فإن محمد يحيى الرخاوى هو ابن يحيى الرخاوى. أعرف على الأقل سبعة اسمهم "محمد

الرخاوى" وأنا بعد لم أبذل أى جهد فى الإحصاء، أما عن "محمد يحيى" فحدث ولا حرج عن كون الإحصاء غير مجد أساساً. أنا لم أختر اسمى، ولا أنت فعلت. تماما كما أننى لم أختر دينى، ولا أنت. ولكن كان على الاختيار.

ولكن: الحق أقول لك، إن مشكلة معاناتى مع اسمى هذه مشكلة مفتعلة؛ لم تكن تظهر إلا لأصوغ بها مشكلة أخرى مع حضور أبى الذى لا يترك لى مساحة سهلة. هى مشكلة مفتعلة لم أعان منها أبداً بالشكل الذى قد توحى به تلك التساؤلات الطلقة. حتى فى المرات التى يمكن أن يزعجنى فيها أن يسألنى أحدهم -الذى أسلم عليه لأول مرة- عن قرابتى ليحيى الرخاوى، لم يكن ردى يخلو من فخر أبداً. كان من الفخر دائماً أن أجيب: "ابنه". لا يبدأ الإزعاج إلا عندما يصر أحد المحدثين على أن يؤطرك فى إطاره بكل أحكامه المسبقة ومتضمناته الجزافية، دون أن يترك لك مساحة لتجدد اللحظة الجديدة التى تجمعكما، عندها يصبح الذنب ذنبه، والحقيقة أن الإزعاجات من هذا النوع واردة دائماً، سواء كنت ابناً ليحيى الرخاوى أو لم تكن. سواء كان اسمك يحمل معه ديانتك أو لم يكن.

حتى مشكلة ضياع حقى فى الاختيار (ألا أكون مسلماً أو محمداً أو ابنا ليحيى الرخاوى مثلاً) فهى مشكلة مفتعلة. ما الذى يدعونى لافتراض أن حريتى تعنى إتاحة جميع الاختيارات أمامى قبل أن أتشكل أصلاً فى شكل ما، هوية ما، **"أنا ما"** حتى لو كنت لا أطيقها، لكى أستطيع يوماً ما أن أمارس الاختيار؟ لا بد مما ليس منه بد، لا بد من اسم ما، ولا بد أن الاسم سيحمل معه ويرتبط بدلالات وانتماءات ما. لا بد إذن من اختيارات مسبقة تسبقك وتصبغك بدلالاتها اخترت أو لم تختر. هل اخترت أن تولد أصلاً؟ هل اخترت أن تولد فى هذا العصر الذى يغلى ويتعثر وتنتمى له حتماً؟ هل اخترت أن تولد فى هذه البقعة الجغرافية تحديداً بكل ما أملته عليك من إملاءات؟ هل اخترت أن تخضع مرغماً لقانون الجاذبية الأرضية بكل ثقله وثقل همومك معه؟ كيف يمكنك أن تختار ألا تموت؟ هل تتميز عن أحد أو يتميز عنك أحد فى إجابة أى من هذه الأسئلة؟ لا بد من اختيارات مسبقة، تسبقك وتفرض نفسها عليك؛ فماذا أنت فاعل؟

ربما يكون من الممكن أن يختار أحدهم، أن يختار بقدر ما يمكنه، بما فى ذلك الاسم والدين، ويختار أن يدفع ثمن تلك الحرية المحددة. ولكن هذا موضوع آخر. نحن المصريين مسلمين ومسيحيين اخترنا ألا نفعل، مفضلين الإبقاء على ميراثنا واستغلاله. هل هذا جبن فى نظرهم؟؟ ولو. بالنسبة لى ولك: هذا حقنا ونحن أحرار فيه. ألا يجمعنا هذا يا مينا؟

لا يمكنك أن تبدأ إلا من حيث أنت. هكذا يا مينا أصبحت مسلماً، وأحاول أن أعمق إسلامى كما تعرف. وهكذا أيضاً أصبحت أنت مسيحياً مخلصاً يعجبنى تمسكه بدينه (للحق: وبدرجة أغار منها بعض الشىء أيضاً). يمكنك أن تكافح فى سبيل حريتك بعض الشىء، يمكنك أن تسعى للتمييز بين الحتمى والضرورى وما ليس أيهما. ولكن لن يمكنك أن تبدأ إلا من حيث أنت، لا من حيث ما تتصور أنه ينبغى أن يكون، ولا من حيث تتمنى أن تكون، وبعد هذه البداية الموفقة، ليكن ما يكون. أنت يا مينا بالذات كنت من علمنى قانوناً فى منتهى الأهمية فيما يخص الهجرة (أى هجرة)، أنت كنت أول من قال لى بمجرد أن استقبلتنى فى مهجرنا: "إذا لم تكن مبسوطاً فى مصر لن تنبسط هنا". هكذا ليس أمامى إلا أن أقبل أن اسمى محمد، بل محمد يحيى الرخاوى بالذات. حين قبلتها استطعت أن أكون أفضل بكثير مما كنت. ربما لو لم أهاجر ما عرفت قيمة ما أنا فيه من الأصل. ربما يحتاج كل منا إلى تجربة الشك حتى يتيقن من صدق اختياره لما هو فيه، إلى تجربة البعد حتى يطمئن إلى صدق قربه. ولكنها تظل تجربته الشخصية هو، وتظل الأثمان التى عليه أن يدفعها اختياراته هو. بأى حق أحكم على من لم يتشككوا فى اختياراتهم بأنهم لم يختاروا؟ هل إيمانهم أكثر أصالة منى ومنك؟ هل إيمانهم أكثر سطحية منى ومنك؟ بأى حق تحكم؟

لا ليس ما يبعدك عنى أو يخيفك منى أو يزعجك أن اسمى محمد، ولا أنه ليس أمامى إلا أن أتمسك بهذا الاسم؟ لماذا لم نكن بعيدين عن بعضنا فى نيوزيلاندا؟ بالمناسبة: اسمك يعجبنى لأسباب تتعلق بهويتنا المصرية. لماذا لم يكن أى من مسيحيى المدرسة بعيداً عن أى من مسلمى المدرسة عندما كنا فى المدرسة؟ أول "علقة" -أذكرها حتى الآن- فى المدرسة كانت عندما ذهبت مع "سامح باخوم" إلى حصة الدين المسيحى، لم أكن أعرف ما المطلوب عندما بدأ الفصلان فى تبادل الأماكن بين المسيحيين والمسلمين من أجل حصة الدين؛ فذهبت مع سامح. لست أقول هذا لأننى من المغرمين بحلاوة أيام زمان مما أشك فى صحته ولو بعض الشىء. تعودت ألا أطمئن للحديث عن أيام زمان، ولكن لم يزل موضوعنا هذا يورطنى فى العودة إليها والاستشهاد بها مراراً وتكراراً.

هل هى طفولة وسذاجة أن أثق فى أيام زمان وفى ذاكرتى عنها؟؟ ليكن، **أرجوك: لا تنكر على سذاجتى.** هل من المفيد دائماً أن أشعر بالخزى منها؟ نعم أنا ساذج، ودائماً ما كانت لدى أفكار ساذجة عجيبة. **بعض السذاجة يقوّى العزيمة** ويورط فى إنجازات لن تتم لو زادت حدة الرؤية.

نعم كانت لدى أفكار ساذجة عجيبة. دعنى أحكى لك عن تلك المرة ونحن فى السيارة فى الطريق الزراعى نسافر لقرية والدى (التى لم تعد قريتى). كنا نعبر بلاد الدلتا، وكان أبى قد كلفنى بمرافقة ضيف أجنبى (فرنسى) إلى هناك على أن يلحقنا. فى الطريق الزراعى (الذى كان زراعياً آنئذ) أشرت له على حقول الذرة قائلاً ما معناه أن هذا اللون الأخضر الزرعى بهذه الكثافة لا يوجد فى بلد فى العالم إلا مصر، يبدو أنه لم يرغب فى إحراجى؛ فأنا لا أذكر إجابته، ولكن: يا لحرجى من نفسى الآن. ما المفيد الآن فى أن يعرف عمر ابنى أن هذه فكرة

محرجة؟ عمر يعرف الآن أن مصر صحراوية جداً، وخصوصاً بالنسبة لفرنسا، ولكنه أيضاً فخور جداً بالصحراء المصرية بكل تنوعاتها وإدهاشها وجمالها، يحبها أكثر مما يحب المطر والخضرة، ودائماً يصر على أن يدعو أصدقاءه (من الكشافة الأجانب، فهو عضو نشط فى فرقة كشافة عصام فرنسيس) إلى جمال لم يعهدوه فى بلادهم. هو فخور بصحرائه، وربما أمكن لفخره أن يستخرج منها ما تنازلنا نحن عنه. لصالح ماذا أستخدم المعايير الجمالية (السائدة!!) الحالية فى الحكم على الصحراء!؟، تلك المعايير التى يمليها علىّ نظام الاقتصاد العالمى الحالى بكل سطوته على المذاهب والمعانى والسياسات والأوطان والبيئات ...إلخ!؟ لصالح من أستخدمها لكى أقنعه أنه واهم وأن جمال خضرتهم وانتعاش طقسهم هو المعيار والقيمة التى تخلفنا عنها!؟ لماذا لا يكون الحر جميلاً، والغبار الخماسينى طارئاً دورياً مذكراً بنعمة عكسه، وبجمال قدرتنا على التعايش معه؟ لماذا لم تعد الحياة غير المكيفة كهربياً جميلة؟ أليست تلك الحياة التى لا تكلفنا أن ندوِّرَ عجلة الاقتصاد التكييفى العالمى؟ أليست جميلة عمارة الطراوة التى حاول حسن فتحى إحياءها؟ أين بيت جدى الذى كل خطوة فيه لها معنى؟ لماذا لم يعد هناك فن رائع متجدد للخط العربى؟ ولماذا أصبحت لافتاتنا المكتوبة بحروفنا العربية قبيحة؟ لماذا كرهنا أنفسنا لهذا الحد؟

هل أنا ضد الحداثة؟

وهل هذه من ضرورات الحداثة؟

أيام كان الناس يسمحون لى بسذاجتى -بحجة الطفولة-، كنت فعلاً أشعر بالفخر ببلدى. لم أعد أفخر بشىء، لم يعد أحد يفخر بشىء، فكيف أربى ابنى؟؟ وكيف أمنعه من الانتحار أملاً فى فخر آخر؟؟، كان يهيأ لى أننا البلد الوحيد فى العالم الذى هو إسلامى ومسيحى معاً. بالنسبة لى كان العالم الخارجى هو مسيحى فقط، أو مسلم فقط، أو غيره فقط. أما نحن فكنا الوحيدين اللذين لسنا "فقط" أبداً، وكنت فخوراً بذلك بمنتهى السذاجة. كنت أفخر بأن لى آخر، وأننى معه نكوّن هذا الذى ليس لديهم، هؤلاء الذين ليس لديهم آخر يحبونه، كنت أفخر أن لى آخرى المسيحى -الذى يعدنى بمعرفة رائعة عما لا أعرف حين أتقرب منه. يبدو أن الحضارة لها رصيد لا يستهان به فى إدراكات السذج جداً، الأطفال تماماً. كنت أشعر أننى أتميز عنهم وأننى أغنى منهم، وأن لدى ما لا يعرفون عنه شيئاً، وأن تلك كانت هويتى، هل كنت تشعر ذلك يا ميناً؟ هل نحن بهذا ضد الحداثة فعلاً؟

كنا فخورين، وكان لنا الحق فى ذلك من قبلهم. فرضت علينا مواطَنَتُنا المصرية أن نوقن أن **هناك أكثر من صيغة لتوحيد الله، كلها تجمعها مصر.** وفى المقابل -المسكوت عنه- أتذكر الآن ما سمعته على لسان فتاة نيوزيلاندية تقوله بمنتهى الحسم والثقة: "لماذا هى مختلفة، لماذا لا تكون مثلنا؟" هذا ما قالته بالنص المترجم حرفياً. سمعتها تقوله مستفَزّة أيما استفزاز، وعدوانية أيما عدوانية، كانت تعلق بقولها هذا على فتاة محجبة رأتها فى أحد المحلات التجارية. كان ذلك فى 1997، أى قبل "11 سبتمبر" الشهير بزمان. كانت الفتاة المحجبة لاجئة صومالية ممن منحتهم دولة نيوزيلاندا حق اللجوء هرباً من أحداث الصومال قبل سنين. أما أنا وأنت فكنا نعرف أن المسيحى مؤمن، وأن المسلم مؤمن، فلماذا أصبح بعضنا كفاراً فى نظر بعضنا، وأصبح البعض الآخر فى نظر البعض الآخر ليسوا من شعب الله؟؟

هكذا كنت أتصور، وتلك هى الأفكار التى لا أعرف لماذا تغيرت؟ لصالح إعلاء شأن أية حقيقة؟ **إن الحقائق هى ما نختار أن نصدقه**، فلماذا تنازلنا عن تلك الاختيارات الجميلة القديمة؟ لصالح أية معرفة وأية إعاقة؟

أوحشنى أن أوضح سياقى هذا لكل أجنبى أتفاخر أمامه بما هو "نحن"، "نحن" التى أنا جزء منها. ترى! أهى مصر التى غابت؟ غابت فراح المسلم والمسيحى يبحث كل منهما عما يعيد إليه فخره بهويته منكراً على الآخر أن يمارس الأمر نفسه، إذ ستكشف الممارسة المقابلة تهافت الممارسة الأولى.

المشكل يا مينا ليس فى أنك مسيحى وأنا مسلم، ولا فى أنى متمسك (أصبحت متمسكاً وأكثر فرحاً) ولا فى أنك متمسك. المشكل هو فى أن ما كنا **ننتمى إليه معاً** لم يعد حاضراً. هذا هو ماشككونا فيه وما نجحوا فى الوصول به إلى الضمور.

مصر ضامرة يا مينا، حلم الاشتراكية ضمر، اتساق الحداثة الواضح ونصوع هدفها ضمر، معنى المقاومة أو النضال ضمر، الأمم المتحدة ضمرت، الفلسفة ضمرت، الفن ضمر والأدب ضمر، الأحزاب السياسية، البرامج السياسية ضمرت، التأكد من أى معلومة مهما كانت ضعيفة ضمر، إدارة الدولة ضمرت، معنى الوطنية والمواطنة والوطن وضرورته وحتميته ضمر، فِرَق الرياضة المصرية ضمرت (أكثر)، بيت جدى الذى كل خطوة فيه لها معنى ضمر، المعمار الجميل ضمر، حتى العدو الواحد الذى كان يجمعنا ولو قسراً أصبح ضامراً بوصفه عدواً واحداً، حتى العِلْم الذى أرادوه إلهاً حديثاً أصابه سرطان المعلومات المتشعبة المفككة غير المنجزة، وأصبح ضمور ألوهيته وواحديته كنسق للمعرفة رحمة متوقعة.

وحده الدين حافظ على تماسكه وضرورته. لم يعد للهوية ملجأ إلا هذا الصرح الأخير. هل هكذا نتورط فيما نتورط فيه أنا وأنت؟ يضطر أحدنا أن يقرن ذاته بصورة عن الدين ليست فى الواقع إلا تشكيلاً للهوية وخندقاً للاختباء من فرط سرعة التغيير المدمر للمعنى، وذلك بعد أن كان أصل الدين طريقاً للحياة، والقرب من الله فى الوقت نفسه، طريقاً لا تحرم الطرق الأخرى عرفاناً بجدارة هذا التقريب؟

هل ضياع مصر -التى تحولت إلى بلد طارد لمواطنيه بعد أن كانت قبلة لكثير من الأوروبيين مثلاً- هو ما ألجأنا إلى الاحتماء فى الدين محولينه إلى سياسة متشنجة فى الزمن الخطأ؟ لم نعد نجتمع يا مينا كما كنا نجتمع فى كل ما تمثله مصر. حتى شم النسيم يريدون إخراجه من نسيج الأعياد البديع.
أم أن المسألة أن كل الأنساق الكبيرة تتهاوى، مصرية كانت أو غير مصرية؟ وفرة المعلومات والإبداع والكتابة والنشر والإعلام الموجه وغير الموجه والفضائيات وحرية النقد المتلاحق والملاحق لكل نسق أسقطت كل العمائر التى كنا نسكنها فلم يعد لنا إلا الدين نسقاً متكاملاً ومتسقاً؟ التفكيك يطول كل شىء (سواء كنت تفكيكياً أو لم تكن؛ فالتفكيك هو ما يحدث). لا عادت المذاهب ولا النظريات تغريك بالانتماء، ولا القيم ولا الأعراف ولا التقاليد عادت قادرة وحدها على أن تقول لا لإيقاعات التغير التى لا تعد بأى معنى بديلاً عن المعنى الذى كانت توفره تلك الأعراف القديمة، ولا الأسطورة بكل مجازيتها ثابتة الشكل مفتوحة المضمون ظلت على احترامها. كل هذه الأنساق كان من المفترض أن تعطينا المعنى، ولكن معانيها لم تعد ترد إلا بوصفها ذكرى "أيام زمان".

عزيزى مينا:

لقد عشت بكل عمق رغبتى فى أن أتخلص من الاختيارات التى فرضت على من قبل أن أعى أى شىء. من اسمى، من يحيى الرخاوى، من علم النفس، ومن مصر. عشتها حتى غيرت اسمى (بدأت أختمه فى الكتابة اللاتينية بحرف ال i بدلا من حرف ال y الذى يستعمله يحيى الرخاوى، ثم تراجعت)، كما تباطأت فى دراسة علم النفس وحاولت أشياء كثيرة أخرى، وهاجرت مبتعداً عنه وعن مصر. ولكننى اخترت أن أعود لكل هذا، ومن أهمه وجودك فى حياتى. لقد أوضح لى نقاشى معك فى الفروق بين ديانتينا أننى لولاك لما اضطررت لأن أوضح لنفسى جواهر اختياراتى فى دينى. أتمنى أن تكون قد عشت مثل ما عشت بسبب نقاشى معك، أن تتضح لك جواهر اختياراتك فى دينك.

أدعو لك يا مينا بنعمة التوحيد التى لا أتصورك بعيداً عنها أصلاً. لا أفهم ثالوثك، وربما ليس من الضرورى جداً أن أفهمه، ولكننى أتمنى أن يستوعب ثالوثك نعمة التوحيد؛ لأننى أحبك.

أدع لى يا مينا بنعمة التوحيد، التى لا أتصورنى بعيداً عنها أصلاً. أنت لا تفهم اعتقادى فى تجرد الله المطلق وتعاليه عما تصفون بما فى ذلك عيسى عليه السلام، وربما ليس من الضرورى جداً أن تفهمه، ولكننى أتمنى أن تتمنى لى أن أفهمه، وأن يكون ذلك لأنك تحبنى، وتحب مصر التى ما زالت ممكنة.

* * * *

المقال الثانى:
رسالة إلى انتحارى
محمد يحيى الرخاوى
نشرت فى "سطور": العدد 103 (يونيو) 2005، ص 30 -35

"الأحياء هم الجبناء
حين اختاروا العيش، أم الشهداء
حين اختاروا الموت بعيداً عن هذا العالم؟ ...."
نجيب سرور

بتنا لا نملك إلا الاعتراف، هكذا أتصور، الاعتراف الموجع بأنه "بالطبع نجح المتفجرون فى لفت انتباهنا وإثارة مخاوفنا وفى إرهابنا". ها نحن نخشى ونرعب على أرزاقنا وسياحتنا وسمعتنا وسلام شوارعنا وأماننا فيها، كما نخشى أيضاً على صورة تحضرنا وصورة إسلامنا وعلى وحدتنا الوطنية وتركيبة مجتمعنا وطعمه وروحه وتماسك صفوفه فى اتجاه أهداف مشتركة. لا نملك أن نكتفى بوصف بعض الحالات بكونها "فردية" أو مجنونة؛ فمجمل ما يحدث حولنا يشير إلى أن مثل هذا الحكم لا يحمل إلا عمى وصمماً ليس أقل خطورة مما نخشى منه، فهل نحتمل مثل هذا؟ هكذا يزلزل شاب منتحر أرضاً نريدها ثابتة، سواء اعتبرنا انتحاره استشهاداً أو جنوناً وكفراً. بتنا لا نملك إلا الاعتراف، هكذا أتصور، الاعتراف الموجع بأننا أسأنا التربية وأسأنا التقدير، وأسأنا إدارة الأمن والأمان والإمساك بزمام السلطة.

ربما كان أسهل ما يمكن أن نقوله لأنفسنا هو أننا لا نفهم هذا الشاب ولا أقرانه ولا جماعته (مضمنين الرفض فى عدم فهمنا بالطبع)، ولكن هل سيعفينا انغلاق الفهم علينا من مصير لا نريد توقعه؟! نقول لأنفسنا إننا نفهم اليأس، ولكننا لا نفهم الانتحار، إننا نفهم الغضب ولكننا لا نفهم القتل، إننا نفهم الدين (الصحيح خاصة!!) ولكننا لا نفهم التطرف، إننا نفهم ثورة الشباب ومشاكلهم ولكننا لا نفهم الهمجية والتخلف فى طريقة التعبير عنها، إننا نفهم الحلم ولكننا لا نفهم تحقيقه بالقوة، إننا نفهم الأمل فى المعنى ولكننا لا نفهم التصلب فى فرض الرؤية ولا الجمود فى التصور، إننا نفهم الاستشهاد ولكننا لا نفهم قتل "الأبرياء"، إننا نفهم الحرب إذا كانت ضرورة ولكننا لا نفهم أن يواجه سلاح أخى أبى وأمى وجارى ومجتمعى، هؤلاء الذين لم يحتلوا أرضى ولا اغتصبوا شعبى. كل هذا -بالنسبة لهم على الأقل- محض لعب على التعريفات والمفاهيم لا يغير من ضرورات الواقع المعيش

شيئاً. نقول لأنفسنا أيضاً إننا نفهم أن يضلوا الطريق فى مرحلة المراهقة والشباب، ولكننا لا نفهم أن يصموا الآذان عن نصحنا وإرشادنا ونحن نبين لهم المسارات الصائبة، ونحن نرشدهم سواء السبيل.

إن كل هذه عناصر خطاب أثبت فشله، أثبت أنه لا يفتح قناة للتواصل إذ يبدو أن مفرداته مفهومة لنا دون الطرف الآخر، هذا إذا كانت بالفعل مفهومة لنا أصلاً، أى إن لم نكن نستعملها لتغطية عجزنا عن إنتاج خطاب حقيقى يعالج أسئلة حقيقية، أو ربما نغطى رغبة أكثر تغلغلاً فى ألا نفهم فعلاً. هل نحن فعلاً نعرف المعالم الصائبة ونملك صياغة واضحة مقنعة للدين الصحيح ولسواء السبيل ونستطيع أن نعرف "الأبرياء" و"المجتمع" و"الحرب" و"السلام" و"الانتحار" و"الشهادة" وغيرها وغيرها بجسم مناسب ولا لبس فيه؟

ولكن من المؤكد أن علينا أن نفهم، لم يعد لنا فى هذا خيار، لم يعد الأمر يحتمل تساهلنا المعتاد، معتمدين على حسن النية أو على الثقة فى قوتنا أو على قبضة والدية أو حكومية حديدية، لم يصلح كل هذا فيما سبق، فلماذا سيصلح الآن؟ أخشى أننا نتكلم متوهمين موقع سلطة لم نعد نمتلكها بالفعل، وربما ولا بالقوة. نحن نكلمهم دائماً من موقع سلطة مجتمعية ما، وعلى الرغم من أن السلطات جميعها يجرى إعادة تعريفها الآن على أرض الواقع؛ فإن الصورة الثابتة للواقع الذى تعودنا على أن نريده وأن نرسمه ما زالت راسخة فوق حركة وجدانهم، ما زالت تظلم سماءهم وهى تقوم بادعاء الإنارة والاستنارة. هكذا أصبحنا لا نتماهى مع معنى أى سلطة من السلطات التى نمثلها (أبوية - تربوية - تعليمية - دينية(!!)- أمنية - تنظيمية إدارية - سياسية ...إلخ)؛ فأصبحنا لا نمارس الأدوار التى تعطى لسلطتنا هذه مشروعيتها فى المقام الأساس، وبالتالى نحن -فى نظرهم- لا نستحقها أصلاً، إلا من خلال ما نمارسه من الضلال والحرمانية والطغيان والظلم وهو ما يتسق مع ما اختاروه من مناظير ينظرون بها لنا.

أنا شخصياً لى مقعدى فى كل من السلطة الأبوية والسلطة التعليمية، وهما عينتان يمكنهما تمثيل بقية أنواع السلطة التى يخضع -ويُفرض عليه الانتماء- لها شاب كالذى يفجر نفسه هذا. وعندما أواجَه -بوصفى سلطة- بمثل هذا التشكيك فى مشروعيتى، أعرف أن ممارسة القوة لن تزيدنى إلا عمىً وابتعاداً عمن أتسلط عليهم؛ وأتصور أن نجاتى الحقيقية هى فى ممارسة قدر أكبر من الصدق، قدر لم أعتد أنا نفسى أن أمارسه مع نفسى. آمل من ذلك أن يعيد لى الصدق بعضاً من مشروعيتى، ليس لأننى أحب السلطة، ولكن لأننى -بصراحة- غير مستعد للتنازل عنها لمن لم يدفع ثمنها أصلاً، هذه هى طبيعة الأشياء التى لن أغيرها، حتى ولو أردت.

يبدو أن على أن أقدم لهذا الشاب ومثله، ولنفسى أولاً، مجموعة "اعترافات" باسم السلطة، اعترافات مناقضة لمنطق التسلط السائد، لعلى أفتح بها باباً لتواصل أكثر صدقاً. أن يوافقنى أو لا يوافقنى كلاهما حقه. أن يصدقنى أو لا يصدقنى هذه مسؤوليتنا معاً. أن نجد حلاً أو لا نجد: من أين لى أن أعرف؟ ربنا موجود، يعينه ويعيننى، على سعينا، ما دمنا نسعى.

أى بنى: هأنذا أعلن أنك نجحت، أو أنك ينبغى أن تكون نجحت فى جعلى أراجع موقفى، لعل أخوك يراجع نفسه قبل أن يفعلها من بعدك. كل ما أملكه الآن فى هذه اللحظة هو أن أكلمك بما هو أنا، لا بما كنت أتصور أنه ينبغى على أن أكون فى نظرك: أنا أيضاً يصل بى السواد والظلمة حد التفكير فى الانتحار، خاصة عندما أجلس وسط المتشدقين المدعين معرفة خبايا الأمور، وأسمعهم يفسرون كل شئ (كل شئ بمعنى كل شئ) فى إطار معرفتهم اليقينية بالنوايا والتحالفات السياسية الكارثية، ويومياً (على الله) يتنبؤون بالكوارث والمصائب. لا أفهم كل هذا الكره ولا أحتمله، وعندما أتذكرك أنت، فقط أنت تتلقاه منهم وتحمله فتفجر نفسك؛ عندها لا أفهم كيف "لا" ينتحرون، أو حتى كيف "لا" يهاجرون: ولا حتى هذه يفعلونها. هل أنا وحدى ضعيف الاحتمال؟ ربما. ولكننى لاحظت مؤخراً أننى لم أنتحر، وأننى أحمد الله، فاصبر معى حتى أنهى كلامى.

سأقول لك ما أتصور أنك تعرفه ضمناً، ولكن يبدو أن اعترافاتى أهم من معرفتك الصريحة أو الضمنية: هل تعلم ؟ أنا أيضاً لا أحتمل، مثلى مثلك، أنا أيضاً لا أعرف حلاً، لا تتصور أن عندى الإجابات، فقط لم أكن أريد أن أقولها لك، لم أكن أعرف كيف أقول مثل هذا دون أن تكون فيه دعوة للاستسلام أو الانتحار، ولكن ها أنت تنتحر فدعنى أقول. اعذرنى، لقد تصورت أنه ينبغى علىَّ أن أكون أنا مرشدك، أنه واجبى أن أفتح لك أبواب الدنيا، وكفانى هزيمتى أمام نفسى وأمام الأغراب، ماذنبك أنت؟ كيف أربيك دون أن أكون لك القدوة والمثال؟ هكذا قالوا لى أيضاً. هكذا تصورت أن أى هزة فى صورتى تهددك، كما أنها تهددنى وتزعجنى منك تحديداً. الحق أقول لك، أنا لم أتعلم كيف أربيك أصلاً، ليس من السهل أن تكون رجلاً، لم أكن أعرف كيف أحمل هذا العبء، فبالغت فى تخويفك لعلَّ الخوف يسهل لى مهمتى. فرضت عليك وصايتى حتى لاترى هزيمتى، ولكن، لم يعد أمامى إلا الاعتراف - أقنعتنى انفجاراتك، وأقول لك "هذا اعتراف آخر"، ولكن: لعل فى الصدق بداية جديدة لنا معاً، لعل فى القاع أساساً يتحمل قفزة تدفع نحو ارتفاع جديد.

نعم أنا مهزوم، وعاجز. مهزوم لأن العالم لم يعد ينتظر منى دوراً إلا الاستسلام ودفع ثمن تذاكر الوجود المستهلك معهم، وعاجز عن أن أبين له كيف أننى أحمل شيئاً مهماً جداً ومختلفاً لا بد أن يحمله على احترامى. نعم أنا تعجلت وحلمت أحلاماً لم أستطع تحقيقها، لأن أحلام الشعوب لا تتحقق بالكلمات، نعم كانت أحلامى بالنسبة لك وعود تكشُّف لك زيفها بما يوجعك

أشد الوجع، نعم أنا كذبت عليك ورغبت فى أن أسهل عليك الدنيا التى لن تسهل. ولكن لا لن أنتحر ما دمت أنخفض وأعلو، وأحاول وأسعى، وأنجح وأخفق، وأراجع نفسى، وأعترف.
نعم لقد قصرت معك فى إعلان كل هذا، وكأنك ستمسكها علىّ، وكأنك أنت ستنتهز الفرصة لتستبعدنى، وكأننا (أنت وأنا) لسنا معاً، أصبحت أنت خوفى وأصبحت أنا محض جلادك العميل. نعم أنا مهزوم وعاجز، واسمح لى بتكرارها حتى أستقر فى الاعتراف بها، حتى لا تتحول إلى مناورة ليست هدفى. الحق أقول لك، أشعر الآن أن فى قولتها قوة أخرى، قوة لم أعهدها من قبل. نعم يا فتى، صدقنى هذى المرة، فى قولتها قوة لم أعهدها من قبل، وكأن عبء إنكارها هو هو ما أضعفنى وأذلنى أمامك وأمامهم وأمام نفسى.
لعلك تسألنى الآن ثم ماذا ؟؟ ثم ماذا ؟ ثم هذا أنا المهزوم العاجز (ثانى وثالث ورابع) مستمر، أستمر مراهناً على أن الله لم يخلقنى لمحض الإهانة، باحثاً عن حكمة أوضاعه، مؤمناً بمطلق عدله. أى بنىّ، يبدو أن ما جعلنى أستمر فى الحياة حتى هذه اللحظة هو هذه اللحظة، أن أستطيع أن أقولها لأخطو نحو ما بعدها . كيف أعتذر لك عن التأخير؟
أى بنى : الانتحار أسهل من كل هذا، فرصة الاستشهاد هى أيضاً فرصة للخلاص الأسهل، لن يكون الاستشهاد استشهاداً إلا لو كان هو الحل الأصعب، أصعب من اختيار العيش داخل هذا العالم. المدمنون - مثلك تقريباً- لا يخشون الموت، وكثيراً ما يتمنونه -مثلك تقريباً-، ولكنهم لايجرؤون على إعلان الاعتراف بهزيمتهم أمام المخدر، حتى فى هذه اللحظة التى يفضلون فيها الموت. الموت لهم هو حل أسهل. أما الاعتراف بالهزيمة "النكراء"، ثم الاستمرار فى الحياة؛ فهو نقطة البدء لرحلة التعافى، هكذا يسير الآن علاجهم: هلا تفهم ؟؟
ثم ماذا ؟ ثم الآن دورك؟ أنت أيضاً مهزوم، لن يمكنك (أنت أيضاً) إلا أن تبدأ من هذه النقطة، ليس لديك إلا هذا الميراث، ليس الأمر أسهل من انتحارك، ولكنه أيضاً أكثر شرفاً وإيماناً فرحاً بأنك لا تستطيع أن تعرف كل شىء، ولهذا فليس من حقك أن تحسم كل هذا الحسم مبرراً لنفسك هَدم المعبد علينا وعلى أعدائنا. شمشون -فى نظرى- ليس بطلاً ولا نبياً، شمشون موهوب بالفتوة ولكنه كاره وحاقد. هل هذه هى بطولتك؟ هل تريد لأهلك مصير أهل شمشون اليهودى؟
ولعلمك: ليس معنى اعترافاتى أننى أقبل أن أعيش مطأطئ الرأس أو أن هذا هو ما أطلبه منك. ولكن أيضاً فإنه لم يعد يجدى أن تفخر بالفراعنة ولا بالمسلمين الأوائل ولا بصلاح الدين ولا حتى بمحمد على، أو اختر أنت من أسماء الماضى من شئت، ومن أمجاد الماضى ما شئت، سيظلون غير مجدين لك أو لى، فما بالك بكل الهزائم التالية.
الغريب يا أخى أننى أشعر فى اعترافى هذا الآن براحة ما، لا ليست راحة الاستسلام، صدقنى هى راحة ممزوجة بفخر ما غريب، وكأن طاقة للمستقبل قد فتحت من جديد، بمجرد أن وقفت على أرضى دون استسلام ولا انتحار، ودون كذب. ثمة فخر مصحوب بيقين بأننى لا أعترف بهذا لصالح أحد إلا أنا، لصالح صدقى أنا، لصالح نضجى أنا.. وكذلك -إن كان هذا مما يرضيك- ثمة هاجس يوشك أن يصبح يقيناً بأن الكل مهزوم، وبأننى صاحب أكبر فرصة متاحة -الآن- فى إعلان هذا والبدء منه نحو شىء آخر أفضل من كل ما هو معروض علىّ. الشىء الأغرب، أننى أشعر -بهذا الاعتراف- بأننى أكثر حرية. مرة أخرى يا أخى ليست حرية الاستسلام، ولا هى حرية الانتصار عليهم كما تحلم أنت، لكنها حرية التخلص من صنم يلزمنى بالانتصار فى معركة أنا لم أختر دخولها أصلاً.
لسبب (غبى) ما تورط العالم فى منافسة (غبية) مع من يسمون أنفسهم "الحضارة الغربية". المنافسة غبية، ومن تورط فيها ليس أقل غباء. لنفس السبب تحول كل شئ إما إلى مكسب أو خسارة، ساد منطق حسابى تنافسى تقاس فيه الحياة بالأرقام، أرقام لم يعد لنا قبل بها، ولا إلى أبد الآبدين. فلينتصروا فيها وبها، ولأختر لنفسى مساراً آخر، لا أعرفه، ولكننا يمكن أن نجده معاً.
أنا أيضاً مثلك، أريد أن أفخر وأن أنتشى بما هو أنا وبما أنتمى إليه، أنا أيضاً مثلك لا أطيق هذا العالم التنافسى الذى يفرض علىَّ ألا أكون أنا لصالح غبائه التنافسى والاستهلاكى، أنا أيضاً مثلك لا أحتمل عبودية وتبعية لما أكره تُفرَض علىَّ باسم العولمة أو بأى اسم آخر، ولكننى أصبحت أشك دائماً فى جدوى الحلول السهلة، الحلول السريعة، والانتحار الكاره حل سهل وسريع، حتى لو أخذت معك حفنة من الناس ممن تكره؛ فالكراهية أيضاً حل سهل، بل دعنى أقول لك: إن النضالات العنترية المتعجلة كلها حلول سهلة، لم تجلب لنا إلا المصائب، ومزيداً من الهزائم.
نعم أفهم ثورتك على هذا الميراث من الهزائم والذل المفروضين عليك، ونعم أفهم رفضك للتنافس الذى فرض علينا دون عقيدتنا (حتى أننا بتنا ننافس العلم والعلماء لإثبات أن الله موجود، لَم لا نتركهم يحاولون هم إثبات أنه غير موجود، إذا أرادوا؟!)، ونعم هكذا أيضاً أفهم رفضك لهذا العالم وكراهيتك له، ولكننى أبداً لا أستطيع قبول حل شمشون الجبار: "علىَّ وعلَى أعدائى"، لا ولن أراه بطولة.
ربما كنت أنا من عرَّضك للخديعة عندما أجلت الإعلان عن هزيمتى مراراً وتكراراً، تماماً كما يعرضك لها سيناريو شمشون الذى أنت مستدرج فيه، خدعة البطولة والنهضة السريعة الجاهزة التى لا تنتظر إلا القرارات الفورية الثورية. فى كل مرة لم نقبل فيها الهزيمة لم نتعلم، ولم نتغير. **أليس من حقنا أن ننهزم**؟ ماذا قدم لنا كل الأبطال المغاوير فى ساحات النضال إلا قصصاً عن البطولة نستعملها كما نستعمل الهرم والمومياوات وغيرها من الآثار التاريخية؟ ماذا قدموا غير أحلام لا تستطيع دفع ثمن تحققها (جانا نهار ماقدرش يدفع مهرها)؟ ماذا

قدموا إلا هزائم أسموها انتصارات أحياناً، ونكسات أحياناً أخرى، واستمراراً للنضال والصمود والتصدى فى أحيان ثالثة؟ إذا أردت -فعلاً- أن تقيس الإنجاز، قارنه بما كان يمكن أن يتم من بدائل، ولك دلائل فى دول كانت وراءنا، أصبحنا نغبطها أو نحسدها بينما ندعى أن الغرب الوغد المجرم يضطهدنا نحن دوناً عن الباقين، أصله خائف من الإسلام تحديداً (!!؟). ربما كان هذا احتمالاً وارداً، ربما جعلناه نحن كذلك (دون عائد)، ولكننى موقن أن لا الغرب ولا إسرائيل ولا أحد كان يمكنه أن يقدم لهم مكاسب على حسابنا على أطباق من الفضة بقدر تلك المكاسب التى قدمتها العنترة الفارغة والشمشنة الانتحارية التى ليست لديها خطة ولا هى مستعدة لاحتمال قسوة الحياة وبطء التغيير. انتصارات الشعوب وتطوراتها وحضاراتها عمرها عشرات السنين، وربما مئات كما فى حالة نهضة الأوروبيين التى عمرها لا يقل عن أربعمائة عام على أقل تقدير، بينما نحن ما زلنا نبحث عن الولد الذى سيصلح البلد، وكأن البلد لا ينقصها إلا الولد! لا لن يصلح انتحارك شيئاً (يا ولد).

أنا لا أقول لك إن الحل فى جلد الذات، إعلان الهزيمة ليس جلداً للذات، الهزيمة حق لا بد من استغلاله بشرف، الهزيمة واجب وإلا أصابتنا لعنة غرور الشيطان. قلت لك إننى أشعر -بشكل ما- بفخر ما فى قدرتى هذه على إعلان متواضع لهزيمتى، أنا لا أجلد ذاتى ولا أحب هؤلاء الذين هم منا ومع ذلك يستمتعون بجلدنا ليل نهار. هؤلاء أيضاً شاركوا فى الكارثة. أما بالنسبة لى؛ فإن إعلان الهزيمة ودفع ثمنها هو خروج من جنة زائفة إلى أرض مازلنا مكلفين فيها بالتوحيد وبالسعى فى مناكبها كليهما.

لم يضاعف مهانتنا بقدر إنكارنا للهزيمة، ذلك الذى كان عليه أن يمثل نقطة بداية، نقطة انطلاق أكثر واقعية. هى واقعية تفرضها حقيقة القانون المكانى البديهى: لا يمكن لأحد أن يبدأ تحركه إلا من حيث هو، لا من حيث يحلم أن يكون، ولا من حيث يتصور أنه ينبغى أن يكون.

يا بنى: إن كل تأجيل لهذه البداية المحتومة، البداية من الاعتراف بالهزيمة ومن "الفرح" بهذا الاعتراف ما هو إلا كذب لا يسهم إلا فى مزيد من الهزائم وتعميق الجراح. لا تحزن، الكل مهزوم، ليس هناك منتصر فى لعبة الحياة والموت، ليس هناك انتصار فى لعبة معرفة الله، معرفة الله هى لله وحده، لا يعرف عنها أحد شيئاً. الكل مهزوم وفان عدا وجهه سبحانه، ونعم أنا معك: نحن لنا مزية الاضطرار لإعلانها الآن، ولكن دون وهم بطولة شمشون، ولا وهم الانتصار فيما ليس فيه نصر. لم يعد يمكن أن يكون شمشون بطلاً وهو يهدم المعبد بينما هو يفعلها قبل أن يسأل نفسه هذه الأسئلة التى أتمنى أن تسألها لنفسك معى:

هل يمكننا أن نعلن الهزيمة دون أن نكفر بأنفسنا؟
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة ونتجرع آلامها حتى نشفى من داء الكذب؟
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة ونأخذ الفرصة فى التعلم منها ومنهم ونشكرهم عليها؟
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة لنبدأ؟
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة ونبتسم؟ لأن حرب التنافس الاستهلاكى ليست حربنا!
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة ونستمر؟ لأننا نعلم أننا لم نستدرج بعيداً عما هو نحن!
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة ونفخر؟ لأنه ما زالت أمامنا الفرصة لأن نكون أكثر عدلاً وتقوى!
هل يمكننا أن نعلن الهزيمة دون أن نكفر بالله؟

ليس أمامى ما أقوله لك إلا أننى حاولت أن أصدقك فى بعض ما لم أكن أجرؤ عليه، معترفاً بنجاحك فى إجبارى؛ فإذا سمعتنى، وكلمتنى، ربما تدفعنى لمزيد من صدق التواصل، عله يرضيك مؤقتاً، لنحتمل معاً، ونكمل معاً، ونسعى فى سبيل الله، دون أن نتصور استشهاداً هو ليس إلا اختياراً للموت بعيداً عن هذا العالم الذى كلفنا الله بالسعى فيه.